

الأثر السياسي لفرقة الفداوية (من الباطنية) في الجبهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية

إعداد :

الدكتور / إبراهيم بن محمد الحمد المزيني
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / كلية العلوم الاجتماعية
قسم التاريخ والحضارة

الرياض - ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

The first part of the document discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It emphasizes that every entry should be supported by a valid receipt or invoice. This not only helps in tracking expenses but also ensures compliance with tax regulations.

In the second section, the author provides a detailed breakdown of the company's revenue streams. This includes sales from various product lines and services. The data shows a steady increase in revenue over the past year, which is attributed to strategic marketing efforts and product diversification.

The third section focuses on the company's operational costs. It details the expenses related to production, distribution, and administrative functions. The analysis reveals that while production costs have remained relatively stable, distribution costs have increased due to higher fuel prices and logistics challenges.

Finally, the document concludes with a summary of the overall financial performance. It highlights the company's strong profitability and its ability to manage costs effectively. The author also provides recommendations for future growth, such as investing in research and development to create new products and exploring new markets.

مقدمة:

شهدت الجبهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية ظهور فرقة الفداوية (إحدى فرق الباطنية الشيعية) التي كان لها أثر واضح في تفكك القوى الإسلامية في المنطقة عن طريق الفتك بزعماء أهل السنة، أو التحالف مع الصليبيين ضدّهم في كثير من الأحيان مما شكل خطراً واضحاً على الأمة الإسلامية خلال ذلك العصر.

وتعرف هذه الفرقة في المصادر التاريخية بأسماء عديدة من أشهرها: (الباطنية، والإسماعيلية، والحشيشية، والنزارية، والفداوية) وإن كان الاسم الأخير قد اشتهر في عدد من هذه المصادر، فهو لكثرة استخدامه في بلاد الشام، وخطورة فرقة الفداوية بين فرق الباطنية لاشتهارهم بعمليات القتل والإغتيال سراً مما أربح خصومهم، (وهم أصحاب الخناجر المسمومة) وهذه التسمية من باب تخصيص هذه الفرقة بالذكر، وإن كان المراد أحياناً فرقة الباطنية بعمومها.

ولم يقترن وجود هذه الطائفة بالوجود الصليبي في المنطقة، وإنما هي فرقة ذات جذور تاريخية بعيدة، وذات توجه عقدي خطير، استقادت من حالة الضعف والتمزق الذي أصاب العالم الإسلامي في الفترات السابقة على الوجود الصليبي، وتكاد خطرهما خلال تلك الحروب والمواجهات التي تمت بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، وكانت عاملاً من عوامل الضعف والتمزق في الجبهة الإسلامية آنذاك.

وجود هذه الفرقة وسط طرفين متحاربين المسلمين السنة والصليبيين فرض عليها أن تتخذ سياسة معينة تتفق مع مصالحها أولاً وقبل كل شيء، كما دفعتها إلى تقوية نفوذها، وتعميق وجودها في المنطقة على حساب الصراع الدائر فيها، وكان من الطبيعي أمام هذه الظروف المتشابكة المتداخلة المعقدة أن يكون هناك اختلاط وتشابك بين تاريخ هذه الفرقة وتاريخ كل من المسلمين السنة في المنطقة، والصليبيين. ذلك أن كل طرف من الأطراف الثلاثة كانت له أهداف وغايات تشابكت وتداخلت فيما بينها أحياناً، وتعارضت وتنافرت أحياناً أخرى.

ولخطورة هذه الفرقة، وتردد ذكرها في أحداث الحروب الصليبية وجدت أن من الأهمية تتبع الأثر السياسي الذي تركته في الجبهة الإسلامية آنذاك، مع التقديم بتعريف سريع عن ماهية هذه الفرقة

وطبيعتها، وظروف انتقالها إلى بلاد الشام ومصر مسرح الأحداث الصليبية. ولن يعتمد هذا البحث إلى التوسع في التاريخ لهذه الفرقة مذهباً وعتيدةً، لأن هذا سيخرجنا إلى مجال الدراسات المذهبية والعتدية، وهو مجال له أهله ومتخصصوه، كما أن هذا البحث لم يقصد منه تتبع تاريخ تلك الطائفة وتسلسل أسماء شيوخها، وسنتي حكمهم، وأبرز أعمالهم لأن هذا الأمر سُبقت إليه بتفصيل عند كثير ممن كتبوا عن هذه الفرقة، وإنما سيتم التركيز على الأثر السياسي الذي تركته هذه الفرقة في الجبهة الإسلامية إبّان الحروب الصليبية.

وقد كانت الكتابة عن هذا الموضوع فكرة تراوحتني منذ زمن مبكر لإحساسي بأهميته، والحاجة إلى طرقة، ولكن انشغالي بما هو أهم صرفني عن هذه المهمة، فأجلت ذلك إلى حينه. وحينما عدت إلى الموضوع وأخذت بجمع مادته العلمية، ويعد أن تجمع لدي حصيلة لا بأس بها من المعلومات ذات العلاقة وتفت على عددٍ من المراجع الحديثة التي طرقت هذا الموضوع أو بعض جوانبه^(١)، وكنت أتراجع عن الماضي في إتمام الكتابة فيه، إلا أنني استشعرت أهمية الموضوع من جديد، وأدركت أنه من الموضوعات التي تحتاج مزيداً من الدراسة والبحث، لأهميته وتشعب آثاره، خاصة إذا وجهت الدراسة إلى تقصي الأثر السياسي الذي تركته تلك الفرقة في الجبهة الإسلامية آنذاك، فمضيت مستعيناً بالله عزّ وجلّ في إتمام الدراسة.

الغداوية وطبيعة مذهبهم:

أشير بداية إلى أن اسم الغداوية من الأسماء التي شاع إطلاقها على هذه الفرقة في بعض مضار العصر، ويقصد بها (الباطنية) وهي فرقة نشأت فرعاً مستقلاً من فرق الشيعة، وذلك بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ (٧٦٥م)، حيث نادى أصحاب هذه الفرقة بالإمامة من بعده لابنه إسماعيل دون أخيه موسى الكاظم. كما عرفت هذه الطائفة بالإسماعيلية أو السبعية لأن إسماعيل في نظرهم هو الإمام السابع^(٢) وعرفت فيما بعد في مختلف البلاد الإسلامية بأسماء مختلفة مثل: المزدكية، والتعليمية، وعرفت في بلاد الشام أيام الحروب الصليبية بالحشيشية والغداوية، وهما أشهر

(١) سيرد ذكر لمجموعة من هذه الأراجع ضمن هوامش البحث، وسيتم سردها في قائمة المراجع في نهاية

البحث.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ١/١٦٧-١٩١.

لقابها^(١) وسبب ذلك فيما يبدو أنهم في بلاد الشام أقرب ما يكونوا للتنظيم العسكري (الغداوي). وكان أهم ما يقوم عليه المذهب الباطني أو الإسماعيلي هو إيمانهم بأن العقيدة ظاهرة وباطنة، وأن الشخص الذي يدرك كنه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب، وقد أدى بهم هذا الرأي إلى تأويل أحكام الشريعة، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادات باطنًا وجعلوا للتزويل معاني ظاهرة يعرفها الناس، وأخرى باطنة يعرفها الإمام وحده دون سواه، ولذلك سموا أتباعه بالباطنية^(٢).

كما أن هناك من يفكر أن هذه الفرقة إنما سميت بالباطنية نسبة إلى قول دعائها بالإمام الباطن أو المستور، أو قولهم أن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلًا وربما عرفوا بذلك أيضًا لأنهم كانوا يكتُمون مبادئهم ويلقونها سرًا إلى الحكام^(٣).

وقد اتخذ أصحاب هذه الفرقة التفسير وسيلة لنشر مبادئهم، ولجأوا إلى التأويل كذلك. فهم يؤكفون على ضرورة وجود الإمام يقول الغزالي: « وإنما لقبوا بها - يعني الباطنية - لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر »^(٤).

وقد اتخذ الباطنية الاغتيال وسيلة لهم في التخلص من أعدائهم، وكان يتولى هذه المهمة فئة منهم تسمى الغداوية أصحاب الخناجر المسفومة، وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداءً لرئيسهم، وهم ما سنتعرف عليهم عند الحديث عن مراتب الفرقة. كما ذكر ابن الفرات أن الإسماعيلية يقال لهم الغداوية^(٥). وهذا سر إطلاق اسم «الغداوية» على هذه الفرقة.

(٢) أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، ص ٥٤.

(٤) عن آراء الباطنية ومذاهبهم انظر: الغزالي فضائح الباطنية، ص ١١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،

٢٠٠/٨-٢٠٤.

(٥) الغزالي، فضائح الباطنية ص ١١، ١٢؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ٢/٥٩٠، ٥٩١، ويوضح الغزالي هدفهم من هذا السلوك بقوله: « وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الامتلاخ عن قواعد الدين إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عصام يرجع إليه ويقول عليه (ص ١٢) »

(٦) فضائح الباطنية، ص ١١.

(٧) تاريخ الدول والملوك ص ١٥٢-١٥٤.

أما عن تسميتهم بالحشيشية، فإنه يفهم مما ذكره المؤرخون أن داعي دعاة الباطنية، والمسمى شيخ الجبل في الموت،^(٩) أنشأ حديقة غناء فيها كل مالدّ وطاب، وحاول أن يظهر بها بعض الأصناف التي ذكرت في الجنة من تخيل وأعشاب وفواكه وغير ذلك، ويعد أن يتسامر داعي الدعاة مع فرقة الفداوية المغايب بهم أمر اغتيال شخص معين يساق بينهم مشروب الحشيش إلى أن يتم تخديرهم، ثم ينقلون إلى تلك الحديقة، وهناك يفيقون فيجدون أنفسهم بين حدائق غناء وفاكهة، وبنات غانبات ينكر لهم أنهن الحور العين. ويعد أن ينغمسوا بها في هذه الحدائق يتم تخديرهم مرة أخرى ثم ينقلون إلى حضرة داعي الدعاة الذي يسألهم أين كانوا، فيجيبون أنهم كانوا بالجنة. ويقصون عليه ما شاهدوه من تعيمها، وهنا يقول لهم إذا أرتتم أن تتعموا بتلك الجنة مرة أخرى عليكم بقتل فلان، ويحدد لهم الشخص المراد قتله، فلا يتردد هؤلاء الفتية في تنفيذ ما طلب منهم طمعاً في الرجوع إلى تلك الجنة مرة أخرى وقد أيد هذا الوصف الرحالة البنديقي ماركو بولو (٦٥٢-٨٧٢هـ/١٢٥٤-١٢٢٤م) الذي زار المنطقة فيما بين عامي ٦٧٠-٦٧١هـ (١٢٧١-١٢٧٢م) أيام حكم شيخ الجبل علاء الدين، وأشار إلى أنه رأى هذه الجنة بنفسه.^(١٠)

وهي الواقع أنه رغم تأكيد الرحالة ماركو بولو كشاهد عيان لوجود هذه الجنة إلا أنه لا يوجد أي دليل يؤكد صحة ذلك، إذ يستبعد أسامة زكي زيد ذلك، ويعدّه ضرباً من الخيال والأساطير، ويدعم زعمه هذا بعدد من الآراء والدلالات.^(١١)

ومن ناحية أخرى فإنه ينكر أن أتباع تلك الطائفة كانوا لا يعبان بالموت لإيمانهم بأن الشخص إذا مات في سبيل سيده شيخ الجبل، أو لأي سبب آخر ضمن نطاق المذهب خلت روحه في جسد شخص آخر، وهي أكثر راحة والطمأنينة.

(A) الموت: كلمة بيلمية معناها المكان الذي أرشد إليه العقاب، ويذكر ابن الأثير أنها من نواحي قزوين قيل أن ملكاً من ملوك الديلم كان كثير التصيد فأرسل يوماً عقاباً وتبعه فراه قد سقط على مواع هذه القلعة فوجدته موضعاً حصيناً فحمر ببناء قلعة عليه فسماه إله موت، ومعناه تعليم العقاب، ويسمى هذا الموضع الطالقان (الكامل ٢٠١/٨).

(٩) الرحالة البنديقي، ماركو بولو، ص ٦٤-٦٥.

(١٠) الصليبيون وإسماعيلية الشام، ٦٩-٧٣.

ومما يذكر هنا أنه أطلق عليهم اسم الحشاشين أو الحشيشية نسبة إلى مادة الحشيش التي يتم تخديرهم بها، وهو من أسمائهم.

ومما يلفت الانتباه هنا أيضاً: أن بعض علماء اللغويات، يؤكد أن الفعل الإنجليزي (to assassinate)، بمعنى يقتال أو يقتل، والاسم منه (assassin) بمعنى قاتل أنه مشتق من الحشاشين بقلب الشين سيناً نسبة لتلك الفئة من الفدائية الذين اشتهروا بالقتل والاعتقال في عصر الحروب الصليبية، وهم الذين أطلقت عليهم بعض المراجع الحديثة اسم «الحشيشية» لتناوهم الحشيش، وقد جاء في «قاموس أكسفورد» أن أصل هذا اللفظ الأوربي هي كلمتا (حشاش، وحشيشية) العربية، ويدلل هؤلاء العلماء على رأيهم بأن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه المراد هنا في اللغات الأوربية إلا في عصر الحروب الصليبية.^(١١)

وكان لهذه الفرقة أثرٌ خطيرٌ في تاريخ الجبهة الإسلامية زمن الحروب الصليبية عن طريق مباشر أو غير مباشر في مجرى تلك الحروب وأحداثها، مما يؤكد أهمية هذا الموضوع وضرورة إفراده بدراسة علمية مستقلة.

ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان فيه المسلمون في حال دفاع ضد الصليبيين أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب هذه الفرقة، مما كان له أثره البالغ في إضعاف المسلمين وإحداث ثغرات واسعة في جبهتهم، وهذا عامل ضعف قوي أضيف إلى عوامل الضعف والتفكك التي مني بها المسلمون، وتعرضت لها الجبهة الإسلامية في تلك المرحلة الحرجة من تاريخهم في الوقت الذي ازداد فيه تماسك أعدائهم الصليبيين، وحرص أمرائهم على تحالفهم فيما بينهم وشد أزر بعضهم بعضاً. ولكن يحسن بناء، قبل أن نلتمس إلى هذه الأحداث، وما تركته هذه الفرقة من آثار في تمزيق وحدة المسلمين في ذلك الوقت، أن نتلمس، ولو بشكل سريع، نشأة هذه الفرقة في كل من بلاد العراق وفارس، ومن ثم امتدادهم إلى بلاد الشام ومصر، وأثرهم في أحداث تلك البلاد.

(١١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١/٥٣٩هـ، وقد حرصت على عدم الاسترسال في سرد الأسماء التي أطلقت على هذه الفرقة، وتعليقاتها، ومدى صحتها لعدم مناسبتها هنا من ناحية، ولتغطيتها من قبل عدد من المؤرخين والباحثين من ناحية أخرى، انظر (أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ٨١-٨٨).

فرقة الباطنية في كل من العراق وفارس:

وجدت الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية طريقها إلى بلاد فارس والعراق بداية الأمر امتداداً للدعوة الفاطمية الشيعية على يد داعي الدعاة الفاطمي الشيرازي الذي كان له أثر كبير في نشر المذهب الشيعي في بلاد العراق للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان البيهقي أبي كاليجار الذي كان لا يخفي ميله للفاطميين.^(١٢)

وكان أول دعاة الباطنية بفارس والعراق أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذي قدمه الباطنية عليهم والبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال.^(١٣) وبعد موته سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) حلّ محله الحسن بن الصباح^(١٤) الذي يعدُّ من أهم دعاة الباطنية، وأكثرهم أثراً في المذهب. وكان كما وصفه المؤرخون شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب.^(١٥)

وقد نشأ الحسن بن الصباح في الري، وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية، ولما تسلّم قيادة المذهب ذاع صيته، في بلاد فارس، وساعده في ذلك تفكك الدولة الإسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة من ناحية أخرى. ويؤكد برنارد لويس أثر ذلك بقوله: « لقد أظهر حسن الصباح عبقرية سياسية في إنراك ضعف الحكومات الإسلامية وقد أبدى مواهب إدارية

(١٢) أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ١٦٧-١٨٧.

(١٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١/٥٣٦.

(١٤) هو حسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن بن الصباح الحميري، ولد في مدينة الري سنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م)، وتلقى العلم في مدينة نيسابور على يد الموقق النيسابوري أحد علماء السنة المشهورين في ذلك الزمان، ولم يكن تعلمه للمذهب السنّي مقصوداً لذاته، وإنما كان لغرض التموين، حيث كان التشيع آنذاك أمراً مقبولاً ومسموحاً على معتقده. وقد التحق ابن الصباح في خدمة السلطان السلجوقي ملكشاه، وحاول أن يفسد العلاقات التي تربط السلطان بالوزير نظام الملك حتى يتفرد في حظرة السلطان، ولكن الوزير شعر بذلك فعمل على طرده من القصر السلطاني، فعمل ابن الصباح كوماً لتنظيم الملك، وبيت القدر به، فكان أول عمل قام به بعد تكوين دولته في الموت هو التخلص من نظام الملك عن طريق أحد فدائيت في رمضان سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)، وقد مات ابن الصباح سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) (ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١/٢٠٣).

(١٥) سعيد عاشور، المرجع نفسه، ١/٥٣٦-٥٣٧.

استراتيجية رائعة في استغلالها في الهجوم الإرهابي،^(١٦)

وقد لجأ ابن الصباح في نشر دعوته إلى سلاحين، الأول: استمالة بعض الزعماء المحليين وأمراء القلاع في بلاد فارس، والثاني: محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعة لتكون معاقل له ولأتباعه، يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحمايتها من سلاطين السلاجقة، وكانت أهم القلاع التي استولى عليها الحسن بن الصباح قلعة الموت في طبرستان قرب قزوین، وقلعة شاه نر، وقلعة خان، وهما على جبل أصبهان قرب العاصمة أصفهان.^(١٧)

وقد طاف الحسن بن الصباح البلاد، وعاش بمصر حوالي عام ونصف العام، والتقى الخليفة المستنصر القاطمي مرة واحدة سنة ٤٧١هـ (١٠٧٨م)، وسأل المستنصر من الإمام بعدك؟ فأخبره المستنصر أن الإمام بعده ابنه نزار؛ ثم كان أن عاد الحسن بن الصباح إلى فارس، وأخذ يدعو لنزار، ثم حدث بعد ذلك نزاع حول ولاية العهد بين ابني المستنصر نزار والمستعلي، وانقسم الإسماعيلية إلى فريقين، فريق يناصر نزاراً، والآخر يناصر المستعلي. ولم يتمكن نزار من الوصول إلى العرش، وهزم وأسر ومات في الأسر. تغير أن الحسن بن الصباح رفض بيعة المستعلي، واستمر يدعو لنزار مكوناً طائفة النزارية.^(١٨)

وقد اتخذ الحسن بن الصباح قلعة الموت - الحصن الجبلي المنيع قرب قزوین والمسعى عش الغواب لناعث - معقلاً للباطنية سنة ٤٨٢هـ (١٠٩٠م)، وأصبحت هذه القلعة نواة لظهور دولة الباطنية في المنطقة، والتي أصبحت فيما بعد ضربة قوية لسلاطين السلاجقة، وشوكة في صدورهم حيث إنها أصبحت مصدر خطر عظيم بالنسبة لهم، فحاولوا إخضاعها أكثر من مرة إلا أن مجاولاتهم باءت بالفشل، وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

ويفضل ما اشتهر به ابن الصباح من الدماء والحكمة، فقد وضع لاتباعه تنظيمًا دقيقاً، وقسم الدعوة الباطنية إلى عدة مراتب وفق تنظيم محكم أساسه مبدأان هما: الصرية التامة، والطاعة العمياء. كما ألف كتاباً من أربعة فصول ضمنته أهم مبادئ دعوته. ولما كان هدف الحسن تأسيس

(١٦) B. Lewis. The Assassins. A radical Sect. in Islam. P.127.

(١٧) ابن الأثير، الكامل، ١٠/١١٧-١١٨.

(١٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/١٤٨؛ ابن تقي بري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٤٥/٥.

دولة كبيرة ثابتة، فإنه قسّم الدعوة إلى خمس مراتب هي:

١- مرتبة شيخ الجبل: وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من بعده الذين يجمعون في قبضتهم أمور الدولة

والدعوة معاً، فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم في فارس والعراق والشام وغيرها من البلاد. (١٦)

٢- مرتبة كبار الدعاة: وكانوا ثلاثة، كل واحد منهم يتولى مهمة نشر الدعوة الفاطمية في جزء من

العالم الإسماعيلي، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية في ألمات. (١٧)

٣- الدعاة: وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم يتبعون كبار الدعاة، ويتلقون تعاليمهم من

قلعة ألمات ثم ينشرون الدعوة، ويعطون العهود للمستجيبين لها. (١٨)

٤- مرتبة الرفاق: وهم دعاة تحت التمريض لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة، ويصل الواحد منهم

بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد اختبارات طويلة ودقيقة. (١٩)

٥- مرتبة الفداوية أو الفدنيين، وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداءً رئيسهم، وطمعاً في الخلود

بالجنة، وقد أصبحوا الأداة التي استخدمها الحسن ابن الصباح وغيره من دعاة الباطنية في تصفية

خصومهم. ويختار هؤلاء عادة من الفتيان الأقوياء الذين تتفاوت أعمارهم بين الأثنتي عشرة سنة

والعشرين، ويعنون إعداداً خاصاً بتمرينهم على تحمل المشاق وشطف العيش واستعمال السلاح مع

تعلمهم عدة لغات وآداب التصرف في البلاطات، وأهم من ذلك كله توجيههم إلى فكرة ثابتة هي

الإخلاص إلى السيد الذي هو كفيل بنقلهم من عالم اتصف أهله بالكتب والخداع إلى عالم الحقيقة،

عالم الدين والتقوى الذي يعود بهم إلى الصلاح الأبدي. (٢٠)

ومن الواضح أنه روعي في اختيار هذه الفرقة الشجاعة التي هي أقرب إلى التهور والقوة البدنية

الفائقة التي تمكنهم من أداء المهام الخطيرة التي تناط بهم.

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا هم أهم مراتب التنظيم الإسماعيلي بوصفهم الأداة

(١٦) طه أحمد شرف الدين، النولة الزارية، ص ٨٠.

(٢٠) سعيد عاشور، مرجع سابق، ١/٥٢٧.

(٢١) سعيد عاشور، المرجع نفسه، ١/٥٢٨.

(٢٢) نفسه، ١/٥٢٨.

(٢٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ١/٢٧١-٢٧٣.

العاملة التي قامت فعلاً بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في عصر الحروب الصليبية، لذلك اهتم الحسن بن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلاً يتناول الجانبين الروحي والمادي، ويبدأ من الطفولة، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد، المخاطرة والرغبة في التضحية.^(٢٤) وقد مرّ بنا سابقاً حديثاً عن إغراماتهم بملذات الجنة، وغير ذلك من الأحلام.

وبهذا نجح الحسن بن الصباح في تأسيس هذه الدولة في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، واتخذ من ألموت عاصمة لها، أخذ بيث، شها الدعاء، ويعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية، وتعزيرها. وقد قفز لتلك الدولة أن تهزّ عروش الملوك والسلاطين، لأنها أصبحت مصدر خطر بالنسبة لهم، فحاولوا إخضاعها، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل.

وكان أسلوب الاغتيال هو الوسيلة المشروعة عند هؤلاء الفداوية لتنفيذ خططهم وأعمالهم، وقد أثار هذا العمل الرعب والخوف في نفوس أهالي فارس والعراق، ويذكر برنارد لويس أن ضحايا هؤلاء يتركزون في مجموعتين إحداهما تكون من الأمراء والوزراء، والمجموعة الثانية من القضاة والشخصيات الدينية.^(٢٥)

وبالفعل، فقد كان من أوائل ضحاياهم في تلك الفترة المبكرة الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، الذي ناصبهم العداء بعد استيلاء الحسن بن الصباح على ألموت، فلم يترددوا في التخلص منه عن طريق القتل سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)، ويذكر ابن خلكان أن نظام الملك قُتل في شهر رمضان بعد تناوله طعام الإفطار، وفي أثناء خروجه لزيارة بعض أهله، حيث اعترض طريقه غلام يلمي من الباطنية، أظهر أن معه ظلاماً، فلما مدّ نظام الملك يده لتناولها طعنه الصبي بسكين في قلبه، فسقط فاقد الوعي، وتوفي بعد أن وصل إلى مسكنه، في حين قبض رجال نظام الملك على القاتل وقتلوه.^(٢٦) على أنها توجد عدة روايات في قتل نظام الملك منها أن السلطان ملكشاه دسّ له من قتله لعداوة نشأت بينهما، ومنها أن تركان خاتون زوجة ملكشاه هي التي حققت عليه، لأنه كان يعيل إلى تربية

(٢٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١/٥٢٨.

(٢٥) Ibid., P134.

(٢٦) وفيات الأعيان، ١/٢٩٨.

بركياروق العهد، وهو ابن ضررتها بدلاً من ابنتها الصغير محمود، قدبرت مقتله.^(٣٧)

على أي حال فإنّ في مقتل نظام الملك خسارة فادحة على العالم الإسلامي لما له من جهود كبيرة في تنظيم الدولة، وترتيب أمورها، ويكفيه فخراً ماله من أثر في تأسيس المدارس السنية، والتي تسمى المدارس النظامية، ونشرها.

ومما يشهد على الأثر الذي تركه اغتيال نظام الملك، والنتائج التي ترتبت على ذلك ما سجله المؤرخ ابن أبي النعم في كتابه التاريخ المظفري، إذ يقول: «لما قتل نظام الملك تشوشت أمور السلطان ملكشاه، واختلت الأحوال فطاح العدل، وانطفت أنوار العلم، ودرست معالم الفضل، ولم يبق منها إلا

الرسوم».^(٣٨) كما يرد ابن القلانسي أسف الناس عليه بقوله: «لما كان عليه من حسن الطريقة وأثارها

العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن».^(٣٩) ويعد مقتل نظام الملك بشهر وأيام توفي

السلطان ملكشاه في شوال من سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م). وقد أشار السيوطي إلى أنّ أمر الباطنية قد

ازداد بالعراق بعد مقتل نظام الملك ووفاة ملكشاه، فعملوا على تدعيم نفوذهم في هذه المنطقة عن

طريق الاستيلاء على عدة قلاع جديدة على غاية من الأهمية، ثم بنشر مذهبهم بكل الوسائل الممكنة،

والعمل على إسكات الخصوم بكل ما يمكن لهم من أنواع الإرهاب والقمع، وزاد قتلهم الناس، واشتد

الخطب بهم حتى كان الأمراء يلبسون الدروع تحت ثيابهم.^(٤٠)

وقد استغل الباطنية الصراع الذي احتدم في البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه بين

ابنيه بركياروق ومحمود الذي ساندته أمه تركان خاتون، ثم لم يلبث أن شاركهما عمهما تنش الذي

كان نائباً عن ملكشاه في حكم بلاد الشام، ولم ينقطع هذا الصراع طيلة سنتين وبضعة أشهر إلا

بوفاة محمود بن ملكشاه ومصرع تنش سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) وتولي بركياروق عرش السلطنة.^(٤١)

وقد استغل الباطنية هذه الفرصة أقوى استغلال، حيث تقبلوا في ولائهم بين المتنازعين، ونجحوا

(٣٧) ابن الأثير، الكامل، ١٩١/٨-١٩٢.

(٣٨) التاريخ المظفري، ورقة ٩١.

(٣٩) تاريخ دمشق، ص ١٢١.

(٤٠) تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٨.

(٤١) البنداري، مختصر تاريخ آل سلجوق، ص ٨٥.

في تنفيذ عدد من مخططاتهم، وحققوا عدداً من المكاسب، فنجحوا بعد قتل نظام الملك من قتل السلطان العادل ألب أرسلان بن بواد أخيه طغرل بك سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م) على نهر جيحون، حيث اغتاله أحد الباطنية الذين تنكروا في زي الفقهاء. (٣١)

وتعرض وزير أم السلطان بركياروق المسمى عبد الرحمن البسميري للقتل على يد الباطنية، وقتلوا أيضاً أرغش النظامي مملوك نظام الملك بالري « وكان قد بلغ مبلغاً عظيماً بحيث تزوج ابنة ياقوتي عم السلطان بركياروق ». (٣٢)

وقتلوا في العام نفسه الأمير برسق وهو من أكابر الأمراء ومن أصحاب السلطان طغرل بك، وكان هو أول من تولى وظيفة الشحنة في بغداد. (٣٣)

وفي رمضان عام ٤٩٣هـ (١١٠٠م) قتلوا الأمير بلكابك سرمرز بأصبهان، وكان من رجال السلطان السلجوقي، وكان يحتاط دائماً من الباطنية لايفارقه لبس الدرع ومن يمنع عنه. لكنه في يوم مقتله لم يلبس درعه، وعندما نخل إلى دار السلطان وثب عليه باطني فقتلوه. (٣٤)

وقد حاول السلطان بركياروق أن يضع حداً لتلك الأعمال، فبدأ بمحاربتهم وتعقبهم في كل مكان خاصة في أصبهان مركز دعوتهم، فتضافرت جهود الأهالي في أصبهان على الإطاحة بهم، من ذلك ما قام به الفقيه مسعود بن محمد الخجندي من حفر أخايد أوقد فيها النار، وجعل العامة يأتون بالباطنية أهواجا ومنفردين فيلقونهم في النار. (٣٥)

وكانت أبرز الجهود التي بذلت ضد الباطنية في ذلك الوقت ما قام به السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الذي أدرك خطر هذه الفرقة، وأيقن ضرورة القضاء عليهم في أسرع وقت، فأمر أصحابه بمحاصرة القلعة التي كانوا يقيمون فيها بأصبهان وهي شاهز « شاه بن » وتم الاستيلاء عليها في ذي القعدة سنة ٥٠٠هـ (١١٠٧م) بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وتم قتل الزعيم الكبير أحمد بن عطاش

(٣٢) ابن الأثير، الكامل ٨/١٨٢.

(٣٣) المصدر نفسه، ٨/١٨٥.

(٣٤) نفسه، ٨/١٨٥.

(٣٥) نفسه، ٨/١٩٦.

(٣٦) ابن الأثير، الكامل ٨/٢٠٠.

الذي كان متحصناً بها وقتل معه ابنه بعد أسرهما.^(٣٧) وقد شجع هذا الانتصار الذي حققه السلطان على الباطنية في شاء نر على ملاحقتهم في عاصمتهم الموت. ففي عام ٥٠٢هـ (١١٠٩م) قام بمحاصرتها، لكنه اضطر إلى الرحيل عنها عند حلول الشتاء. وحاول الباطنية الانتقام منه في العام نفسه، فترصدوا له في أحد مساجد بغداد، وطعنوه بالسكاكين عدة طعنات لم تكن قاتلة، فبرئت جراحه بعد ذلك بزمن قصير.^(٣٨) كما قام السلطان بقتل وزيره سعد الملك الأبي لما أحس بأنه متواطئ مع الباطنية ويتصل بهم في الخفاء. وقد كثرت حملات السلطان محمد على الباطنية من أجل محو آثارهم وخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم.^(٣٩)

ولم يرق السلاجقة بمحاولة ذات شأن للقضاء على هذه الفرقة بعد وفاة السلطان محمد سنة ٥١١هـ (١١١٧م) إلا بعد موت الحسن بن الصباح سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م)، إذ شجع ذلك سنجر على ملاحقتهم من جديد ظناً منه أن أمرهم قد هان بعد وفاة زعيمهم، والعقل المدبر لهم، فقام بمهاجمتهم في الموت سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) واستطاع أن يقتل منهم خلقاً كثيراً قتلوا بما يزيد على عشرة آلاف نفس.^(٤٠)

ولكن على الرغم من الجهود التي بذلها السلطان محمد ومن خلفه من سلاطين السلاجقة في إضعاف هذه الفرقة ومحاولة القضاء عليها، إلا أنهم نجحوا في تنفيذ كثير من مخططاتهم، واستمروا في عمليات الاغتيال لعدد من قادة المسلمين في المنطقة، وواصلوا زعزعتهم للجيبة الإسلامية في كل مكان، ولم يفرقوا بين دين أو مذهب أو لغة، بطشوا بكل من خالفهم مما أدى إلى التفكك وراث النعر في البلاد.^(٤١)

(٣٧) المصدر السابق ٢٤٢/٨.

(٣٨) نفسه، ٢٥٩/٨.

(٣٩) نفسه، ٣٧٨/٨.

(٤٠) نفسه، ٣٢٥/٨.

(٤١) عفاف صبره، لرامات في تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٥٤.

امتداد نشاط الباطنية (الفداوية) إلى بلاد الشام ومصر:

من الثابت أن نشاط الفداوية قد امتد إلى بلاد الشام منذ أيام الملك السلجوقي رضوان بن تتش صاحب حلب (٥٨٨-٥٠٧هـ/١٠٩٥-١١١٢م) حيث عمل على استمالاته إلى الفداوية الحكيم بن المنجم الباطني أحد دعائهم، وظهر مذهبهم في حلب وشايعهم رضوان، وحفظ جانبهم، وصارت لهم في بلاده قدرة زائدة وجاء عظيم، وأصبحت لهم فيهدار الدعوة.^(١١)

ويعدّ الملك رضوان هو أول من أنشأ للباطنية دار دعوة ببلاد الشام، حيث أدى تشجيعه لهم إلى انتشار مذهبهم وازدياد نفوذهم حتى احتسب بهم الأهالي، وأصبح كل من تحلّ به مصيبة أوزيم يحتسب بهم. كما دخل كثير من الأهالي في مذهبهم خوفاً منهم واتقاءً لشُرهم.^(١٢) وبامتداد نشاط الفداوية إلى بلاد الشام في تلك الفترة الحرجة ازداد الوضع في المنطقة فوضى واضطراباً، وأضاف عاملاً جديداً من عوامل الصراع والتنافس داخل تلك البلاد، وأخذ رجال الفداوية يوجهون نشاطهم ضد المسلمين، حيث قاموا بعمليات اغتياالات واسعة ضد عددٍ من قادة الجبهة الإسلامية في تلك الأثناء، كما أنهم تحالفوا في فترات كثيرة مع الصليبيين ضد المسلمين، الأمر الذي أدى إلى زيادة التفكك والتمزق في بلاد الشام في ذلك العصر.

وباستقراء سريع لأحداث الساحة الإسلامية في تلك الفترة، يتضح لنا الدور الكبير الذي قامت به تلك الفرقة في أحداث المنطقة، كما يتضح لنا أن هذا الدور قد سار باتجاهين هما:
الأول: مقاومة الكذب السني، والعمل على الفتنك بعدد من زعمائه وقائمه، ويمكن أن يدخل ضمن ذلك التحالف مع الصليبيين على حساب الجبهة السنية.

ثانيهما: مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم. إذ لم يفرق الفداوية في ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين النصاري، وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعاً.^(١٣)

وبهذا، فقد أدى اتساع نشاط الفداوية في بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد إلى عوامل التفكك التي تعرضت لها الجبهة الإسلامية إبان الحروب الصليبية، ذلك أنه حدث في الوقت الذي كان فيه المسلمون في حال دفاع ضد الصليبيين أن تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب

(١٢) ابن القلاسي، تاريخ دمشق ص ١٤٢: ابن العديم، زبدة العلب من تاريخ حلب، ١٤٥/٢.

(١٣) ابن العديم، المصدر نفسه، ١٤٥/٢.

(١٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٥٢٩/١.

الفداوية، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية في جبهتهم، في الوقت الذي شهد تماسكاً قوياً في الجانب الصليبي، وحرص أمراؤهم على شد أزرب بعضهم بعضاً.^(٤٥)

من ذلك ما فعله الفداوية في حصن شيزر سنة ٥٠٢هـ (١١٠٩م)، إذ ثار جماعة منهم على حين غفلة من أهله فملكوه، وأخرجوا من فيه وانتزعه من أصحابه بني منقذ.^(٤٦)

وكان القتل هو السلاح الوهيب الذي نهجه الفداوية في تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم لدرجة أنه يضيق المقام عن حصر ضحاياهم من الأمراء والقادة وغيرهم في عصر الحروب الصليبية.

وهذا من أسباب ميل رضوان لهم وعطفه عليهم، وذلك للحاجة الماسة إليهم في مثل ذلك الوقت، فقد

استعان بهم بشكل واضح، حتى أنه اتخذ منهم جنداً وحماة له داخل حلب.^(٤٧) كما اعتمد عليهم في التخلص من بعض أعدائه المناوئين له حسب طرقهم الفداوية السرية التي اشتهروا بها، من ذلك قيامهم بقتل جناح النولة الحسين صاحب حمص في رجب سنة ٤٩٥هـ (مايو ١١٠٢م) بوازع من الملك رضوان نفسه حسب إشارة أغلب المصادر.^(٤٨)

ونظراً لكون طبيعة الفداوية ومعتقدهم المؤسسة على الفتك والغدر، أصبحت من الأمور الهدامة في حلب ومثار خوف وانزعاج الناس في ذلك الزمان، فقد كاتب بعض الملوك والأمراء رضوان في أمرهم، وافتقروا نظره إلى خطأ الاعتماد عليهم. غير أنه لم ياب به بذلك ولم يعر مكاتباتهم أي اهتمام، واستمر في تأييده لهم.^(٤٩)

وقد أثر تأييد رضوان لهم على علاقاته مع أقرانه من الملوك والأمراء كما أدى إلى غضب العامة

(٤٥) المرجع نفسه ١/٥٤٠.

(٤٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٧٧؛ ابن الأثير، الكامل ٨/٢٥٧.

(٤٧) العيني، ٢/٦٣٦.

(٤٨) ابن القلانسي، مصدر سابق، ٣٠. وقد جعل هذه الحادثة ضمن حوادث سنة (٤٩٦هـ): سبط ابن

الجوزي، مرآة الزمان، ٨/٤.

(٤٩) ابن العديم، زبدة الحلب، ٢/١٤٥.

داخل حلب عليه، فأطلقوا ألسنتهم في سبه وعابوه لسوء تمييزه. (٥٠)
وكان أول من أظهر مذهب الباطنية في حلب هو الحكيم المنجم وأبوطاهر الصائغ، حيث وجدنا كل

تشجيع من رضوان، ومال إليهما خلق كثير من الباطنية في سائر مناطق حلب. (٥١)
وقد وصف ابن العديم تقرب الباطنية إلى رضوان، وأثر الحكيم المنجم في ذلك بقوله: « واستمال
رضوان إلى الباطنية جداً، وظهر مذهبهم في حلب وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم وصار لهم بحلب
الجاه العظيم والقدرة الزائدة، وصارت لهم دار الدعوة بحلب في أيامه. » (٥٢)

وقد وصف ابن الفرات أمر الباطنية في حلب بقوله: « عظم شائهم وصار كل من يجني جنابة منهم
منعوه وحرسوه وكاتبوا الملوك في أمره حتى يخلصوه، فكثر بذلك أتباعهم واشتهر أمرهم واشتدت
شوكتهم، وصار الرجل منهم يلقي الرجل من غيرهم فينزح منه ثيابه ولا يقدر على الامتناع عنه ولا يجد
ناصرأ، ويلقى المرأة والصبي في الطريق فيفتصبه، ويذهب به أنى شاء، ولا يقدر أحد على
استخلاصه. » (٥٣)

ومما يذكر هنا أن الحكيم المنجم قد مات بعد مقتل جناح النولة بعدة أيام، ثم تولى أمر الباطنية في
حلب نائبه أبوطاهر الصائغ الذي أصبحت حلب في عهده قلب الباطنية النابض في بلاد الشام، وكان
أبوطاهر أكثر جرأة، وأعظم إقداماً من سلفه كما كان على جانب كبير من النفوذ والسلطان عند الملك
رضوان. (٥٤)

وقد تقاسم أبوطاهر زعامة القدارية في بلاد الشام مع زميل له يعرف بلقب الفتح السرميني الذي

(٥٠) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ١/٣٩٣-٣٩٥.

(٥١) ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص ١٨٩.

(٥٢) زبدة الحلبة، ٢/١٤٥.

(٥٣) تاريخ ابن الفرات، ج ١، ورقة ٧١.

(٥٤) ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ١٤٩.

اتخذ من سرّمين^(٥٥) مركزاً له، وكان رضوان قد منحها إياه حينما طلبها منه أبوظاهر الصائغ^(٥٦).
لكن ينكر هنا أنّ الملك رضوان لم يستمر في مؤازرته واحتضانه للباطنية بصفة مستمرة، فقد ساء موقفه عند السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م) حيث بلغه ماشاع عنه من مشايعة الفداوية، وقد أُلغى رضوان في مجلس السلطان لذلك، فما كان منه إلا أن أمر في سنة ٥٠١هـ (١١٠٧م) أبا الفنائم ابن أخي أبي الفتح السرميني بالخروج من حلب فيمن معه من أتباعه الفداوية، فخرج في جماعة من أصحابه بعد أن قُتل منهم كثيرون^(٥٧).

ولكن لا يعنى أنّ الملك رضوان حينما أوعز إليهم بترك حلب أنّه استغنى عن خدماتهم، إذ إنه لم يلبث أن دعاهم إليها، واعتمد عليهم في حفظ بلاده من الطامعين بها. وكان قد استعان بهم في حراسة قلعة حلب ضد قوات السلطان محمد الذي كان قد بعثها بقيادة مودود بن أيتكين وأحمد يل الكردى لتجدة أهالي الشام ضد غارات الصليبيين^(٥٨).

وهذا يؤكد أنّ الدافع الرئيسي الذي دفع رضوان إلى الاعتماد على الفداوية هو رغبته في تحقيق بعض الأطماع الشخصية، ومحاولة الاعتماد على قوة تساعد في ذلك، حتى ولو كانوا من أعدائه في العقيدة، وهذا يوضح ما وصل إليه بعض حكام المسلمين من تخبط وسوء تدبير في ذلك العصر، وهو بالتالي عامل من عوامل الضعف الذي أصاب الجبهة الإسلامية آنذاك.

(٥٥) سرّمين، بلدة مشهورة من أعمال حلب ذكر ياقوت أنّ أهلها في زمنه كانوا من الإسماعيلية (معجم

البلدان، ٢/٢١٥)

(٥٦) أسامة زكي زيد، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٥٧) ابن العديم، زبدة الطب، ٢/١٥٢.

(٥٨) ابن القلانسي، مصدر سابق، ١٧٥؛ ابن العديم، مصدر سابق، ٢/١٥٩.

قلاع الدعوة في بلاد الشام:

أدرك دعاة الفداوية في بلاد الشام أنه من الضرورة البحث عن أماكن منيعة قوية التحصين، صعبة المنال، ليركزوا فيها، ويتخلوها مواقع انطلاق لأعمالهم الإجرامية في المنطقة، ويتمكنوا من خلالها من مزاوله نشاطهم وسياستهم ضد المسلمين والصليبيين على السواء، وكانوا يحصلون على هذه المواقع إما بشرائها أو باحتلالها بالقوة. كما عمدوا إلى اتخاذ عددٍ من المواقع المنيعة في قمم الجبال لإنشاء قواعد جديدة لهم، وكان شيخ الجبل يختار عادةً أشد القلاع حصانة ومنعة ليتخذ منها مقراً له، أما باقي الدعاة فيتخلون من القلاع الأخرى العادية ملاجئ لهم،^(٥٩)

وكان الحسن بن الصباح أول من خطط للاستيلاء على القلاع واتخاذها مقراً للباطنية، فبدأ بسياسته تلك في بلاد فارس، إذ استولى على قلعة شاه نربا صبهان، ثم قلعة الموت سنة ٤٨٢هـ (١٠٩٠م)، فضلاً عن عددٍ من القلاع المهمة في بلاد فارس، وحينما اتجهت أنظاره إلى بلاد الشام وأدرك أهميتها للدعوة وخصويتها لنشرها بدأ بإرسال دعائه إليها في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، فعملوا كلَّ جهدهم من أجل الاستيلاء على عددٍ من القلاع في هذه المنطقة لتكون مراكز لتجمعات دعائهم، ومواقع لبث مبادئ دعوتهم، فأقاموا فيها كل وسائل الراحة والرفاهية، وقد أكسبها وجودها على قمم الجبال قوة ومناعة، وكان من أهم قلاعهم: مصياف، والكهف، والخوابي، والقدموس، والرأسفة، والعليقة، والمينقة، والمرقب.^(٦٠)

وقد أصبحت هذه القلاع مراكز دعوة وتجمع لهذه الفرقة طيلة مراحل وجودهم في المنطقة، مكونين حزاماً حصيناً من القلاع يصعب اختراقه مما كان له أثر كبير في الدور الذي لعبته هذه الفرقة في بلاد الشام ضد المسلمين والصليبيين.^(٦١)

(٥٩) أصله زكي زيد، مرجع سابق ص ٨٨.

(٦٠) المرجع نفسه ص ٨٩.

(٦١) أصله زكي زيد، المرجع نفسه ص ٨٩-٩٦، وقد أسهب في الحديث عن هذه القلاع بصورة تحليلية جيدة.

أثر الفداوية (الباطنية) في الجبهة الإسلامية:

ظهر للفداوية في بلاد الشام سياسة جديدة ضد خصومهم تعتمد على إظهار الصداقة والعداء في وقت واحد تحقيقاً لمصالحهم. وهذه السياسة تقوم على استغلال الحوادث والظروف لصالحهم، فكان أتباعهم يتقلبون في خدمة الأصدقاء والأعداء كلما أنسوا في ذلك غنماً لهم، وذلك مع مراعاة مصالحتهم أولاً وقبل كل شيء، وكانت تتساوى لديهم الأطراف المقابلة لهم في الود والعداء. وفي مقابل ذلك لم يتأخر زعمائهم عن معارضة الصليبيين ومخالفتهم حيناً، ومواصلتهم ومهادنتهم حيناً آخر، وكذلك الحال مع المسلمين. وهذا الأمر أدى إلى اتساع نشاطهم في المنطقة، وأضاف عاملاً من عوامل الضعف الذي تعرضت له الجبهة الإسلامية زمن العدوان الصليبي.

كما أن أخذت تعوق أي محاولة لد النفوذ السني في المنطقة حتى ولو كان ذلك على حساب الصليبيين لاتفاق هذا مع سياستها العامة من ناحية، وحتى لا يتقلقل النفوذ السني في المنطقة، ويكون حجر عثرة في طريق نموها ونشاطها، ويتضح ذلك جلياً بما قاموا به من عمليات اغتيال لعدد من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مما كان له أثره البالغ في مسيرة حركة الجهاد ضد الصليبيين في تلك الفترة.

وقد بدأوا تلك العمليات باغتيال جناح الدولة ابن الحسين صاحب حمص سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م)، الذي كان على عداء مع الملك رضوان صاحب حلب، ولكنه في الوقت نفسه من أعداء الصليبيين، خاصة ريموند التولوزي، حيث وقف جناح الدولة حائلاً بين ريموند وتحقيق أطماعه في طرابلس. لذا فقد افتتح الفداوية نشاطهم في بلاد الشام بالتخلص من جناح الدولة بوازع من الملك رضوان نفسه الذي أرسل ثلاثة من رجالهم لاغتياله، فنبهوا خطة لذلك، حيث انتظروه في جامع حمص حتى نزل من القلعة لصلاة الجمعة، وكان يحيط به خواصه وأصحابه مزودين بالسلاح، وبالرغم من ذلك فقد وثب عليه ثلاثة منهم وهو في مصلاه، وكان معهم شيخ كبير يقودهم، وكانوا جميعاً مرتدين زبي الصوفية، فانقضوا على جناح الدولة بخناجرهم ناروه قتيلاً كما قتلوا جماعة من أصحابه بالمسجد.^(٦٢)

وهذه الجريمة تعد من أولى الجرائم التي قام بها الفداوية في بلاد الشام، وقد صادف أنها وجهت

(٦٢) ابن القلانسي، مصدر سابق، ٢٠، وقد جعلها ضمن حوادث سنة ٤٩٦هـ سبط ابن الجوزي، مرآة

ضد شخصية إسلامية رائدة حملت عبء الجهاد الإسلامي ضد القوى الصليبية في بلاد الشام في بداية مراحلها، وقد جاء اغتيال جناح النولة في صالح الصليبيين بصفة عامة، وريموند بصفة خاصة، وأصبح في مقدوره تحقيق أطماعه في طرابلس.

ويتأكد هذه الحقيقة عندما اغتال الفداوية خلف بن ملاعب صاحب أفامية، حيث لم تعض سنوات ثلاث على مقتل جناح النولة إلا وقد تحالف رضوان مع الفداوية في اغتيال زعامة إسلامية أخرى في المنطقة، وهو خلف بن ملاعب الذي تحمل مهمة الجهاد ضد الصليبيين في المنطقة، فدبرت ضده مؤامرة انتهت بقتله على أيدي الفداوية مع جمع من أصحابه سنة ٤٩٩هـ (١١٠٦م)،^(٣) فما كان من تانكرد إلا أن انتهر الفرصة، وهاجم أفامية، واستولى عليها بعد مقتل صاحبها^(٤)، كما أصبح الطريق ممهداً أمامه للاستيلاء على كفرطاب، وغيرها من أعمال حلب.^(٥)

ويبدو أن الفداوية أراوا أن يتخذوا لأنفسهم مقراً آخر ببلاد الشام غير حلب، بعد أن أحسوا بثقلهم على رضوان ونفود أهل حلب منهم، وما فعله العامة في حلب من سب رضوان والثيل منه بسببهم، لذا فكروا في اتخاذ قلعة شيرز مقراً لهم، وكان أن انتهزوا فرصة خروج صاحبها للتزهد سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) فقاموا بمهاجمتها بغتة، حيث دخلوها على حين غفلة من أهلها، فملكوها وملكوا قلعتها، غير أن صاحبها تمكن من استعادتها من الفداوية بعد قتال شديد.^(٦) وبذلك أثار الفداوية الذعر والخوف في صفوف المسلمين في بلاد الشام، وأصبح أهل الشام واقعين بين نارين، العدوان الصليبي من جهة، والفداوية من جهة أخرى.

وكان من بين ضحايا الفداوية في ذلك الوقت القائد التركي مولود بن أيتكين الذي تزعم حركة الجهاد ضد الصليبيين، والذي اغتالته الفداوية سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) في جامع دمشق أثناء تأديته صلاة الجمعة.^(٧) وهذه العملية جاءت في صالح الجانب الصليبي لئلا ينجح أحد ملوك الصليبيين

(٦٣) ابن القلاسي، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(٦٤) ابن الأثير، الكامل، ٨/٣٣٤.

(٦٥) رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٨٩/٢.

(٦٦) ابن القلاسي، المصدر السابق، ٢٠٢-٢٠٤.

(٦٧) ابن القلاسي، المصدر نفسه، ص ٢٩٨-٢٩٩؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار النواتين، ج ١، ص ٦٨/٦٩-٦٩.

انتقد المسلمين بذلك في رسالة وجهها إلى طفتكين صاحب دمشق جاء فيها: «إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها»^(٦٨)

وتتمثل فائدة الصليبيين من هذا الحدث بشعور طفتكين بالذنب لانتهاج الرأي العام الإسلامي له بضلوعه في تلك الجريمة على حساب مصلحته الشخصية، الأمر الذي جعله لا يطمئن لمن يحالفه في المنطقة سوى الصليبيين للاحتفاظ بإمارته، وجماعته من الصلاجة، فوضع يده في أيديهم وحالفهم^(٦٩). وهذا جانب من جوانب الضعف الذي شهدته الجبهة الإسلامية آنذاك، وكان لفرقة الغداوية - أداة الفتك الخطيرة ضد الزعماء المسلمين - يدٌ طولى في ذلك.

ويعد أن تولى ألب أرسلان بن رضوان حكم حلب بعد وفاة والده سنة ٥٠٧هـ (١١١٢م) برز في موقفه المعادي من الغداوية لتعاظم أمرهم آنذاك من ناحية، ولكتابة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه له في أمرهم حيث قال له: «كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم»^(٧٠) فاستغل رئيس الأحداث في حلب صاعد بن بديع هذه الرسالة، وكان قد خشي خطرهم، وشرع في محاكمة ألب أرسلان في أمرهم وتمكن من إقناعه بضرورة التخلص منهم، فقبض على زعيمهم أبي طاهر الصائغ، وأمر بإعدامه، كما قتل إسماعيل الداعي، واعتقل أكثر من مائتي رجل من أعيانهم، فحبس بعضهم، وصادر أموالهم كما قام بإعدام بعض غلاتهم برميهم من أعلى القلعة، وتمكن عدد منهم الإقلاط ففرقوا في البلاد، والتجأ عدد منهم إلى الصليبيين^(٧١).

(٦٨) ابن الأثير، التاريخ الباهر في تاريخ النوبة الأتابكية ص ١٩.

(٦٩) ابن القلاسي، مصدر سابق ص ٢٠٢.

(٧٠) ابن العديم، زبدة العلية ١٦٨/٢.

(٧١) تاريخ العظمي، ص ٢٨٢؛ ابن القلاسي، المصدر السابق، ص ١٨٩-١٩٠؛ ابن الأثير، الكامل، ٢٦٧/٨؛ ابن

العديم، زبدة العلية ١٦٨/٢-١٦٩.

ولم تقض هذه المحاولة على الفداوية بحلب، إذ عادوا إلى قوتهم السابقة، وذلك بفضل ألب أرسلان نفسه الذي أشار المؤخرون بأنه انغمس في اللهو وسؤ-التصرف، مما أتاح الفرصة للباطنية لمعاودة نشاطهم من جديد، متخزين حلب قاعدة لهم.^(٧١) إلا أنّ أمرهم في حلب لم يعد كما كان عليه في زمن رضوان، (ففضلوا) على هذه الحال حتى كان حكم بلك بن بهرام الأرتقي لحلب سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م) الذي وجد أنه من المصلحة تنظيم الجبهة الداخلية في حلب قبل التفرغ لمواجهة الصليبيين، وإن يتحقق له ذلك إلا بضرب الفداوية الذين استفحل خطرهم في حلب، فأمر بإخراجهم من حلب، وقبض على قائدهم نائب بهرام الداعي، واعتقله فباعوا أموالهم ورجالهم، وخرجوا من حلب.^(٧٢)

ولم يضعف شأن الفداوية كثيراً في بلاد الشام بما حلّ بهم على يد بلك بن بهرام بن أرتق، فقد تزعم أمرهم أحد رجالهم البارزين وهو بهرام الأسترياني، وتجمع معه كثير منهم في خفية واستتار، حتى ظهر أمرهم في دمشق سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) نتيجة علاقة مودة ربطته مع ظهير الدين طفتكين الذي تقرب منه اتقاء لشره، ويتأزل له عن ثغر باندياس في السنة نفسها، فعدت باندياس حصناً للباطنية استعاضوا بها عن حلب إلى حد ما، الأمر الذي أدى إلى استفحال خطر الفداوية في المنطقة.^(٧٣)

رعب ابن القلاسي عن ذلك بقوله: « فلما حصل فيه [يعني ثغر باندياس] اجتمع إليه أوياشه من الرعاع، والسفهاء والفلاحين، والعوام، وغوغاء الطغام، الذين استقواهم بمحاله وأباطيله، واستمالهم بخدعه وأضاليه، فعظمت المصيبة بهم، وجلت المحنة بظهور أمرهم وشينهم، وضاعت صدور الفقهاء والمتنين، والعلماء، وأهل السنّة، والمتقدمين، وأهل الستر والسلامة من الأخيار المؤمنين، وأحجم كلّ منهم عن الكلام فيهم، والشكوى لواحد منهم، دفعا لشهرم، وارتقياً لدائرة السوء عليهم لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال».^(٧٤) أما ابن الأثير فقد عبّر عن استيلاء الفداوية على باندياس بأنّ ذلك جاء كارثة على البلاد، يقول عن بهرام: «فعمّمت حينئذٍ خطبه وجلت المحنة بظهوره، واشتدّ الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين لاسيما أهل السنّة والستر والسلامة

(٧٢) ابن العديم، مصدر سابق، ١٧١/٢.

(٧٣) المصدر نفسه، ٢١٦/٢.

(٧٤) ابن القلاسي، ص ٢٤٢-٢٤٣ : ابن الأثير، الكامل، ٢١٩/٨-٢٢٠.

(٧٥) تاريخ دمشق، ص ٢٤٣.

إلا أنهم لا يقدرّون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفاً من سلطانهم أولاً، ومن شرّ الإسماعيلية ثانياً، فلم يقدر أحد على إنكار هذه الحال فانتظروا بهم الدوائر»^(٣) وقد أثار ذلك العمل عدداً من المعاصرين، واعتبروه كارثة حلتْ بالأمة، وحسب ذلك سيئة من سيئات طغتكين في حق الإسلام والمسلمين، خصوصاً وأنّ الفداوية بزعامة بهرام قد اتخنوا من بانياس قاعدة لهم انطلقوا منها للاستيلاء على مزيدٍ من التحصينات، فاستولوا على حصن القدموس^(٣) سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م)، ويذكر ابن الأثير أنّ هذا الحصن كان تابعاً لبوهيمند الثاني - صاحب أنطاكية - وأنه كان يحكمه نيابة عنه ابن عمرو فاشتراه الفداوية منه، وصعدوا إليه وحاربوا من جاؤهم من المسلمين والصليبيين معاً.^(٣)

وقد واصل الفداوية أعمالهم ضد المسلمين، ولم يستطع أحد الاعتراض عليهم أو الوقوف في وجههم لحماية طغتكين لهم من ناحية، ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى، إذ «شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الظلال، ويرفدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير، ولا يفل حدّ شهرهم مقم ولا أمير».^(٣) غير أنّ بهرام لقي حتفه في السنة التالية وهو في طريقه للاستيلاء على مزيدٍ من التحصينات، في مواجهة تمت بينه وبين جماعة من أهل وادي التيم سبق أن قام بقتل أحد زعمائهم، ولكنه كان قد استخلف على بانياس رجلاً من أصحابه اسمه إسماعيل العجمي.^(٤) ومن نشاطات الفداوية في المنطقة في تلك المرحلة اغتيال آق سنقر البرسقي، صاحب الموصل في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ (نوفمبر ١١٢٦م)، وهو الرجل الذي تحمل عبء الجهاد ضد الصليبيين في شمال الشام، بعد أن عجز حكامه عن الصمود في وجه الصليبيين، وقد قام ثمانية من الفداوية في زبي زهّاد بالوثوب عليه أثناء تلايته صلاة الجمعة بجامع الموصل، وكان لا بأسرعاً من حديد وحوله جمع من حرسه، ولكنهم وصلوا إليه فضربوه بسكاكينهم حتى اتخنوه، وحمل إلى داره

(٦) الكامل، ٢٢٠/٨.

(٧) حصن القدموس، حصن قديم تحمي مصيف بينها وبين بانياس (ابن العديم، مصدر سابق، ٢٥١/٢).

(٨) الكامل، ٢٤١/٨.

(٩) ابن القلائسي، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

جريحاً قامت في اليوم نفسه.^(٨١) وكان البرسقي قبيل مقتله قد حقق انتصارات رائدة ضد الصليبيين، لذا فرح الصليبيون كثيراً بمقتله، وانتهزوا فرصة اضطراب الأحوال في بلاد الشام بعد مقتله، فقاموا بمهاجمة عدد من القرى والضياح الأمنة في شمالي حلب بقيادة جوسلين، بل تعدى الأمر إلى مهاجمة حلب نفسها، وكادت المدينة أن تسقط في أيديهم.^(٨٢)

ومما يثير التساؤل والعجب أن بوهيمند الثاني صاحب أنطاكية قد أرسل إلى مسعود بن البرسقي في حلب يخبره بمقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر. ويعلل ابن الأثير ذلك بقوله: « وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية. »^(٨٣) ولكن هذا يثير بعض الشكوك في وجود اتفاق مسبق بين الصليبيين والقداوية لاغتيال هذا الزعيم المسلم.^(٨٤)

وقد ألقى البنداري الضوء على النوافع المباشرة لاغتيال القداوية للبرسقي، فأشار إلى وجود عداوة مستحكمة بينه وبين اللركزيين - وزير السلطان السلجوقي محمود - وكان اللركزيين مائلاً للباطنية محباً لهم، فعمل جاهداً لإقناع السلطان بعزل البرسقي، فلم ينجح في مساعاه، وحاول الكيد له فلم يفلح وفشل الأمر الذي جعله يتفق مع أحلافه القداوية على اغتياله فتم له ما أراد.^(٨٥)

أما ابن أبي الدم فيتوقع سبباً آخر لاغتيال القداوية للبرسقي، وهو الانتقام منه لقيامه في العام

(٨١) ابن القلانسي، مصدر سابق، ص ٢١٤؛ ابن العديم، مصدر سابق، ٢/٢٢٤؛ ابن

الأثير، الكامل، ٨/٢٢٠. وقد أورد ابن الأثير أن البرسقي قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة كلاب وثبت عليه، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما أذاه فقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام، فقاتل لهم: « لا أترك الجمعة لشيء أبداً، وأخذ المصحف ليقرأ فيه، فكان أول ما وقع عليه نظره قوله تعالى: « وكان أمر الله قديراً مقدوراً، فخرج إلى الجامع كعادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفرًا، وكانوا في عدة الكلاب التي رأها في منامه، فجرحوه بالسكاكين، فخرج هو بيده ثلاثة منهم، واثرت فيه الجراح لعنت. (الكامل، ٨/٢٢٠) وما ذكره ابن الأثير فذكر مثله النويري أيضاً في نهاية الأرب، ٢٧/٢٦-٢٧، وربما أنه ناقل عنه

(٨٢) ابن العديم، ٢/٢٢٨.

(٨٣) الكامل، ٨/٢٢٠-٢٢١.

(٨٤) عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية، ص ١٢٧.

(٨٥) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٢٥-١٢٦.

السابق لمقتله بقتل جماعة من الفداوية أديانهم بقتل القاضي أبي الفضل بن الخشاب في حلب.^(٨٦) ويبدو أن طفتكين أحسَّ بعد ذلك بخطورة الموقف، وخاف من الآثار السيئة التي صاحبت استيلاء الفداوية على بانياس واتخاذها معقلاً لنشاطاتهم الإجرامية، وما قام به بعد ذلك من أعمال. لذا فقد حاول التخلص منهم، ولكنه توفي بعد قليل، فما كان من الفداوية إلا أن استغلوا وفاته في أول سنة ٥٢٢هـ (١١٢٨م)، وسعوا إلى الاتفاق مع الوزير أبي علي بن سعد المزدقاني وزير ابنه تاج الملوك بوروي الذي خلفه في الحكم على تسليم دمشق للصليبيين في مقابل حصول الوزير على صور التي كان الصليبيون قد استولوا عليها من الفاطميين سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م).

وقد رسم المزدقاني خطة لهذه العملية، فطلب من الصليبيين أن يحضروا إلى دمشق في يوم جمعة عينها لهم، حيث يكون الناس في المسجد، وفي الوقت نفسه اتفق مع الفداوية أن يكونوا على أبواب المسجد، حتى لا يتمكن أحد من الخروج حتى يأتي الصليبيون ويملكون المدينة.^(٨٧) ويعد أن علم بوروي بذلك وتأكدت لديه المؤامرة قبل تنفيذها استدعى وزيره المزدقاني، وأمر بقتله في السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٥٢٢هـ (١١٢٩م)، وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الفداوية، فقتل منهم جمع عظيم. قلدته بعض المؤرخين بنحو ستة آلاف نفس.^(٨٨) ولا شك أن هذه المقتلة قد أسهمت في شل حركتهم في بلاد الشام إلى حين.

وحيثما علم الفداوية في بانياس بما حلَّ بإخوانهم في دمشق، أسقط في أيديهم، وخافوا على أنفسهم، فقرر رئيسهم إسماعيل مراسلة الصليبيين ليسلمهم بانياس على أن يسمحوا له بالالتجاء إليهم، فقدم الصليبيون بزعامة بلدوين الثاني إلى بانياس وتسلموا من الفداوية الذين قرروا منها سنة ٥٢٣هـ (١١٢٩م). أما زعيمهم إسماعيل، فقد تسلل مع عددٍ من رفاقه إلى الأعمال الصليبية، وفي الطريق أصيب بعلةٍ هلك على إثرها في أوائل سنة ٥٢٤هـ (١١٢٩م).^(٨٩) وفوق ذلك، فقد قام

(٨٦) التاريخ المظفر، ورقة ٩٩ب.

(٨٧) ابن الأثير، الكامل، ٢٢٩/٨؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٢/٢-٣؛ النويري، نهاية الأرب في فنون

الآداب، ج ٢٧، ص ٨٠.

(٨٨) ابن القلائسي، مصدر سابق، ٢٥٤؛ ابن الأثير، الكامل، ٢٢٩/٨؛ أبو الفداء، المختصر، ٢/٢.

(٨٩) ابن القلائسي، مصدر سابق، ص ٢٥٦؛ ابن الأثير، الكامل، ٢٢٩/٨.

الصليبيون بالإغارة على دمشق منتهزين فرصة اضطراب الأحوال فيها، ولم يرجعوا عن دمشق حتى أنزلوا بها أضراراً بالغة.^(٦٠)

أما الغداوية في ألمات، فلم يسكتوا للمذبحة التي أقامها بوري على إخوانهم في دمشق، فخططوا لاغتياله، وذلك عن طريق رجلين خراسانيين أرسلوا إلى دمشق لهذا الغرض، وقد تذكر هذان الخراسانيان في زبي الأتراك، وبقما دمشق، وتمكنا من الانخراط في سلك الخدم، وتدرجا حتى وصلا رتبة حراسة مركب بوري نفسه. وأخذا يتحينان الفرصة حتى كان يوم الخميس الخامس من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م) انتهزا فرصة رجوع بوري من حمامه إلى داره بالقلمة فتلكأ في الاتصاف حتى تفرق عنه أصحابه، فهجما عليه وطعناه عدة طعنات أدت إلى إصابته بجرحين في رقبته وخاصرته، فعلم أصحاب بوري بالحادثة قبل فرارهما، فانقضوا عليهما، وقتلوهما في الحال، وأخذ بوري لطيبه للعلاج حتى برى، وتمائل للشفاء، وتمكن من العودة لمباشرة مهامه من جديد.^(٦١) غير أن الجرح الذي أصيب به في خاصرته لم ينمحل تماماً، فلم يلبث أن انبعث عليه من جديد حتى أودى بحياته في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م).^(٦٢)

يرى أن وكان الصليبيون هم المستفيدين من هذه الأعمال، وبخاصة بعد موت البرسقي إذ أن هذا يعيق الجهود المبذولة لمحاولة توحيد الجبهة الإسلامية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه يتيح لهم تعزيز كياناتهم في المنطقة، فاستغل الصليبيون فرصة عدم وجود زعامة قوية توحد صفوف المسلمين وتقف في وجوههم، وأخلوا يعيشون فساداً في المنطقة، ويهاجمون البلاد، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما يبرز في الساحة رجل لا يقل كفاءة عن سابقه وهو عماد الدين زنكي الذي استكمل الجهود في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية، وخلفه بعده نور الدين محمود الذي عاصر وجوده شيخ الجبل الباطني راشد الدين سنان الذي كان يقف حقداً وسخطاً على نور الدين وعلى أهل السنة عموماً.^(٦٣) وعلى الرغم مما حلّ بالغداوية من لمار وتشريد على أيدي عدد من قادة المسلمين في بلاد

(٦٠) ابن القلاسي، المصدر نفسه، ٢٥٥-٢٥٦: التوربي، نهاية الأوب، ٢٧/٨٠-٨١.

(٦١) المصدر نفسه، ٢٦٥-٢٦٦: التوربي، المصدر السابق، ٢٧/٨١.

(٦٢) نفسه، ٢٧٠: ابن الأثير، الكامل، ٨/٢٢٤: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٢٩٦.

(٦٣) أسامة زكي زيد، مرجع سابق، ١٦٨.

الشام في ذلك العصر، فإن نشاطهم العدائي للمسلمين عامة وأهل السنة خاصة لم ينقطع، بل إنه ظلّ عائقاً أساسياً في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية آنذاك فقد نجحوا في سنة ٥٢٥هـ (١١٤٠م) في امتلاك حصن مصياق (مصياث) «بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له»^(١٤)

ثم إن نشاط الفداوية ضد الجبهة الإسلامية لم يقتصر على بلاد الشام وإنما امتد إلى مصر، ففي القاهرة أشير الاتهام إليهم في تنفيذ عملية اغتيال الوزير الأفضل في أحد طرق القاهرة سنة ٥١٥هـ (١١٢١م).^(١٥)

تحالف الفداوية مع الصليبيين ضد المسلمين:

لم يفرق الفداوية في تعاملهم بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، بل إنهم لم يتورعوا عن التحالف مع الصليبيين ضد قادة الجهاد الإسلامي، فقد عمل الفداوية على وضع أيديهم في أيدي الصليبيين مرات عديدة محاولة منهم للضغط على زعماء الجبهة الإسلامية من ناحية، وحرصاً على تحقيق أكبر قدرٍ لهم من المكاسب في المنطقة من ناحية أخرى. وتاريخ الفداوية مليء بمثل تلك المحالفات التي رحّب بها الصليبيون، ووجئوا فرصة لمعرفة أسرار الجبهة الإسلامية عن قرب، بل وصل الأمر بهم إلى أن اتخذوا هذه الفرقة، وخاصة الفداوية منهم، أداة لتنفيذ مخططاتهم ضد زعماء المسلمين.

ويصعب هنا استعراض كل الصور التي تحالف فيها الفداوية مع الصليبيين، وإنما سنكتفي هنا بإيراد عدد من الأمثلة فقط لتسجيل هذه الظاهرة، ومنها:

- التحالف بين ريموند صاحب أنطاكية والفداوية في بلاد الشام ضد نورالدين محمود، وهجومهم

المفاجيء عليه في أقمية سنة ٥٤٢هـ (١١٤٨م) مما اضطر نورالدين إلى التقهقر.^(١٦)

- اعتماد القائد الصليبي ريموند دي بواتييه على الفداوية سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) أثناء محاربتة

نورالدين، ويبدو أن الفداوية قد أنكروا على نورالدين إبطاله لكثير من شعائر الشيعة في دولته، لذا لم

(١٤) ابن القلانسي، مصدر سابق ص ٤٢٨.

(١٥) سعيد عاشور مرجع سابق، ١/٥٤٢.

(١٦) ابن القلانسي، مصدر سابق، ٤٧٤.

يترددوا في الوقوف إلى جانب الصليبيين ضده. (٧٣)

كما أنّ الفداوية لم يسهل عليهم إسقاط البوالة الفاطمية الشيعية في مصر، وتسلم صلاح الدين الأيوبي زمام الأمور فيها سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، وإزالته لكثير من شعائر التشيع فيها، الأمر الذي أثارهم ضده، مما أدى إلى انضمامهم إلى الملك الصليبي عموري الأول ملك بيت المقدس سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) (٧٤) وإعلان استعدادهم الوقوف معه ضد نور الدين، أو صلاح الدين لأنهم اعتقدوا أن الصليبيين أقل خطراً عليهم منهما، ولكن الفداوية طلبوا ثمناً لتحالفهم مع الملك عموري وهو أن يأمر بإعفائهم من الضريبة التي يأخذها منهم الداوية والتي تبلغ ألفي دينار، وكان أن رحب الملك عموري بهذا العرض ترحيباً بالغاً، واعتبرها فرصة للاستفادة من هذه الفرقة وإمكانياتها، فكتب الملك عموري الداوية بإعفاء الفداوية من الضريبة المفروضة عليهم. (٧٥)

وعلى الرغم من عدم تأثر صلاح الدين بهذا التحالف إلا أنه أثبت ولاء هذه الفرقة لأعداء المسلمين، وتكشف موقفهم من الجبهة الإسلامية.

وانتقل صلاح الدين إلى بلاد الشام ليعيد توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادته بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)، وأثار ذلك مخاوف الفداوية، فقرروا التخلص منه عن طريق الاغتيال، فببر مقدمهم وزعيمهم آنذاك راشد الدين سنان المؤمرات لاغتيال صلاح الدين، وأرسل فداويته لقتله أكثر من مرة لكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل، وانكشف أمرهم. (٧٦)

وفي الجانب الآخر، فقد حرص سنان على كسب صداقة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب والتقرب إليه، وكان يعرض خدماته عليه دائماً ويلبي خدماته. وقد أثبت ذلك حينما أراد الملك الصالح التخلص من وزيره شهاب الدين العجمي، فقام راشد الدين بإرسال فداويته يوم الجمعة الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٣هـ (أغسطس ١١٧٥م) واقتالوه، ويشير ابن العديم أن ذلك تمّ

(٧٧) أبوشامة الزوضتين ٥٧/١.

(٧٨) ابن واصل، مرجع الكوربة ٢٤٩/١؛ المقرئ، السلوك ج ١، ص ٦٢.

(٧٩) عاشور، الحركة الصليبية، ٧٠٨-٧٠٩.

(١٠٠) ابن واصل المصدر نفسه، ٥٤/٢؛ المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك ٦١/١؛ ابن تفردي، البردي، النجوم

بتبشير من سعد الدين كمشتكين أحد كبار قواد الملك بسبب غيرته منه وحقده عليه، فقد انتهز كمشتكين فرصة خروج الملك في رحلة صيد، وقدم له خطاباً أبيضاً وطلب توقيعه حتى يتمكن من إنجاز بعض الأعمال التي لا تحتمل التأخير حتى يعود من رحلته، فوقع الملك ثقة فيه، ولكن كمشتكين كتب فيه خطاباً موجهاً إلى سنان يطلب فيه اغتيال أبي صالح العجمي، وبناءً على ذلك تم اغتياله، ولما علم الملك الصالح بالأمر كتب إلى سنان يلومه ويؤنبه على فعلته، فما كان من سنان إلا أن أرسل إليه الخطاب الموقع بخطه. فأترك الملك حقيقة الموقف، وقبض على كمشتكين^(١٠١) إلى جانب ذلك، فقد قام سنان بمحاولة لاغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي أثناء حصاره لحلب فيما بعد، وقد قصد سنان من ذلك استغلال فرصة تولي الملك الصالح وكان صبيهاً صغير السن في وقت كان فيه صلاح الدين يعمل على توحيد الجبهة الإسلامية تحت لوائه، وهذا أمر يقلق الفداوية لذلك باءر سنان في محاولة لمساعدة الملك الصالح طمعاً في أن يتمكن من بذر الخلاف بينه وبين صلاح الدين حتى تضعف بانشقاقهما قوى السنة في المنطقة، ويقتل من ضربة متوقعة، وحتى يخلوا الجو له لتحقيق أهدافه^(١٠٢).

ولم يدم هذا الودّ طويلاً إذ انقلب إلى عداة بين الفريقين حينما جأحتهم الطعنة من الملك الصالح سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م) عندما استولى على أحد المواقع التابعة للباطنية ويقال له (بحجيرا) من ضياع نقرة بني أسد، ورفض إعادتها إليهم رغم كثرة مكاتبة سنان له في هذا الأمر الذي أدى إلى عزيم الفداوية على الانتقام منه وذلك بإشعال النيران في عدد من المحلات التجارية الواقعة في الطرف الشرقي من سوق الزجاج بحلب رغبة في إثارة الفوضى والاضطراب فيها، وقد أدى ذلك إلى خسائر فاحشة في عدد من أسواق حلب^(١٠٣).

وقد أدى موقف الفداوية المعادي لصلاح الدين إلى تصميمه على الانتقام منهم عن طريق الإغارة على عدد من معاقلهم، فقام سنة ١٥٧٢-١١٧٦م بمهاجمة مصياف إحدى معاقلهم المهمة في بلاد الشام، وكادت مصياف أن تقع في يده لولا أن طلب الفداوية الوساطة من شهاب الدين الحارمي

(١٠١) ابن العديم، مصدر سابق، ٢٤، ٢٢/٢.

(١٠٢) أسامة زكي زيد، مرجع سابق، ١٧٧-١٧٨.

(١٠٣) أبو شامة، الروضتين، ١٦/٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ٢٨، ٢٩.

صاحب حماة وهو خال لصلاح الدين، فتمّ الصلح بينهما ورحل عنها صلاح الدين.^(١٠٤)

وقد أدى نجاح صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية تحت قيادته إلى تخوف كل من الصليبيين والقدواوية منه، الأمر الذي أدى إلى ازدياد ارتباطهم وتحالفهم، تؤكد ذلك الزيارة التي قام بها هنري دوق شامبني (Henri Champagne) لحصون القدواوية ومعاقلهم سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م)، حيث استقبله زعيمهم الحسن بن سنان في قلعة الكهف، وهناك وقف هنري على قوة هذه الفرقة، ورأى بنفسه ما يقوم به شباب القدواوية، وما يتميزون به من طاعة عمياء (لقائدهم).^(١٠٥)

وقد حرص القدواوية في أثناء تلك الزيارة على أن يلفتوا نظر الصليبيين إلى قوتهم وثروتهم، فقدموا إليه كثيراً من الهدايا، كما عرضوا عليه محالفتهم إياه، واستعدادهم لقتل من يرغب قتله، ويؤكد عاشور - بعد ذلك - أن القدواوية تصلوا من وراء هذه الأعمال تحقيق نوع من التوازن بين الصليبيين، والأيوبيين مما يضمن البقاء على حساب الجميع.^(١٠٦)

وهذا يؤكد أن علاقة الصليبيين بهذه الفرقة لم تكن عدائية بصفة دائمة، فقد سادتها عوامل الودّ والمصداقة في كثير من الأحيان .

إلا أن هذه العلاقة لا تليث أن تتعرض لنوع من التدهور والفتور، وذلك حينما يكون القدواوية أداة في أيدي بعض قادة الصليبيين ضد بعضهم البعض، فقد سجل التاريخ أنهم في سنة ٥٤٦هـ (١١٥٢م) قاموا باغتيال ريموند الثاني، صاحب طرابلس، والذي يذكر أن زوجته «هوليرن» ابنة بلديون الثاني ملك بيت المقدس هي التي أوعزت إلى القدواوية بقتله لخلاف كان قائماً بينهما.^(١٠٧) وفي سنة ٥٨٨هـ (١١٠٢م) قام القدواوية أيضاً باغتيال كونراد دي مونتفوات. وقد اختلفت الآراء

(١٠٤) ابن الأثير، الكامل، ١٣٩/١.

(١٠٥) من ذلك أن الحسن دعا أحد رجاله من القدواوية فلمره بإلقاء نفسه من أعلى أبراج القلعة على مرأى من الكونت، فهوى ذلك القدواوي وأصبح جثة هامدة، ثم دعا آخر فأمره بقتل نفسه ففعله فتناثر الكونت بما شاهده، ويطلب من الشيخ أن يتوقف عن ذلك لما راعه من مشاهد (وقد أورد أسامة زكي زيد نص هذه الزيارة نقلًا عن المؤرخ اللاتيني هرقل في ملحق خاص ضمن كتابه «الصليبيون وإسماعيلية الشام» ص ٢١٩-٢٢٠).

(١٠٦) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٨٧٢/٢-٨٧٢.

(١٠٧) عاشور، المرجع نفسه، ٦٢٠/٢.

حول المحرض على قتله، وإن كانت أصابع الاتهام تشير إلى الملك ريتشارد قلب الأسد بأنه المحرض على ذلك، على حد زعم عددٍ من المراجع. بينما تشير عددٌ منها إلى أن ذلك راجع إلى وجود عداة بينه وبين راشد الدين سنان زعيم الفداوية.^(١٠٨) كما قام الفداوية في سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) باغتيال ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الرابع (أمير أنطاكية وطرابلس) في كاتدرائية أنطربوس، وكان عمره ثماني عشرة سنة، فاهتز الصليبيون لهذا الحادث، وحزن عليه أبوه حزناً شديداً. يقول ابن واصلته وخافوا واحتزوا لأنفسهم».^(١٠٩)

ويبدو أن الأسبتيارية هم الذين عرضوا على قتله نظراً لأن الفداوية كانوا آنذاك يؤمنون أتاوة لهم، وكانوا على علم وفاق مع بوهيمند الرابع.^(١١٠)

وفي السنة التالية قام الفداوية باغتيال اليرت بطريك بيت المقدس، وكان من أعداء الأسبتيارية أيضاً، وقد سعى بعدها بوهيمند للانتقام منهم، ويفضل ما جاءه من مدد من الفداوية هاجم قلعة الخوايبي (إحدى قلاع الفداوية) سنة ٦١١هـ (١٢١٤م) وكانت تسقط في أيديهم لولا نجدة الملك الظاهر غازي أمير حلب الذي استنجد به الفداوية، فالتمس بنوره المساعدة من السلطان العادل، فرفع بوهيمند الحصار عن الخوايبي.^(١١١)

وقد ركز الملك لويس التاسع (ملك فرنسا) جهوده في التحالف مع الفداوية الذين يأنزهم بالهدايا فور وصوله إلى الشام حتى يؤمنوا أنفسهم إزاء الموقف الجديد الناشئ عن قيام دولة المماليك في مصر من ناحية، ومحاولة للتخلص من الإتاوة التي كانوا يدفعونها للفداوية والأسبتيارية من ناحية أخرى، فرد عليهم لويس بأحسن مما (جاء) به، ورحب بعقد محالفة بين الجانبين.^(١١٢)

(١٠٨) نفسه، ٢/٨٥٠-٨٥١.

(١٠٩) ابن واصلته مفرخ الكروب في أخبار بني أيوب، ٢/٢١٩.

(١١٠) عاشور، مرجع سابق، ٢/٩١٢؛ عفاف صبره، مرجع سابق، ٢٢٥.

(١١١) ابن واصلته مصدر سابق، ٢/٢٢١.

(١١٢) عاشور، المرجع السابق، ٢/١٠١٦ وقد أورد جوزيف نسيم تتابع العلاقة بين لويس التاسع، وهذه الفرقة

بشكل مفصل (انظر: العنوان الصليبي على بلاد الشام، ص ٢٢٨-٢٤٥).

انهيار الوجود الباطني في بلاد الشام ومصر:

وهكذا كان موقف هذه الفرقة في بلاد الشام بين مد وجزد ، وتقلب في الولاء بين القوى المتصارعة في المنطقة إلى أن تمّ القضاء على آخر معاقلهم في العراق على أيدي المغول سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م). أما في بلاد الشام ومصر فقد استمرّ الغداوية يؤدون نشاطهم في الجبهة الإسلامية طيلة عصر الحروب الصليبية، وكان داعي الغداوية في بلاد الشام أبو المعالي قد انتهز فرصة انهزام المغول من أمام المسلمين، وبخّل في معركة مع المغول استردّ بعدها بعض القلاع التي كان المغول قد استولوا عليها، ثم قام بقتل بعض الغداوية ممن نسبت إليهم الخيانة أو التعاون مع التتار. يقول ابن ميسر في ذلك: «ولما ملك التتار على بلاد الإسلام... سأم الإسماعيليون إليهم أربع قلاع من هذه القلاع، فلما كسروهم المظفر قطز عادت الأربع قلاع إليهم، فتسلمها رئيسهم وقتل أصحابه الذين سلموها للتتار»^(١١٣) . وقد أدرك الغداوية قوة السلطان بيبرس وحكته منذ البداية، فأرادوا مهادنته والتودد إليه حيث قدمت فرقة منهم إلى بيبرس وهو محاصر لقلعة الكرك سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) ومعهم هداياهم، فاستقبلهم بيبرس وأحسن وفادتهم، وعادوا.^(١١٤)

وقد ركّز السلطان بيبرس جهوده في هذا الوقت على تقليص نفوذ الغداوية ، وتقليم أظافرهم ، وكان الغداوية يدفعون مبالغ تأمينية (أتاوات) للصليبيين، ومن تبعهم من الداوية والأسبترية حتى هادن بيبرس الأسبترية في الكرك واشترط عليهم أن يمتنعوا عن أخذ هذه الأتاوات من الغداوية. وصار الغداوية منذ ذلك الحين يدفعون الأموال للسلطان بيبرس بدلاً من دفعها للصليبيين، فيذكر ابن عبد الظاهر أن رسلهم وصلوا إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م) وقالوا: «هذا المال الذي كنا نحمله قتيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، لينفق في المجاهدين»^(١١٥) وهذا يعني مطلق الإنعان من هؤلاء للظاهر بيبرس. لكن السلطان لم يقتنع بهذا الوضع، بل أخذ يسعى في القضاء على نفوذهم كلية من المنطقة، وبدأ بذلك في سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) عندما قدم إليه شمس الدين بن نجم الدين الشعرائي شيخ الغداوية في بلاد الشام، فقبض عليه وعلى أصحابه، وسيروا إلى

(١١٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ٦٨/٢.

(١١٤) الروض الزاهر، ص ٢٧٤.

(١١٥) السلوك، ٥٥٧/٨.

مصر وحبسوا بها لاتهامهم بالتعاون مع الصليبيين، واستمرت مضايقتهم حتى تسلم نواب السلطان معاقليهم.^(١١٦) وقد أثار هذا الموقف نجم الدين حسن بن الشعرائي شيخ الفداوية، وساءه القبض على ابنه وسجنه في مصر، الأمر الذي دعاه إلى الامتناع عن الحضور إلى السلطان وتقييم الخدمة إليه وهو محاصر للكرك في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٨هـ (١٢٧٠م)، بل إنه بعث إلى السلطان يطالبه بتتقيص ما كان يدفعه لبيت المال.^(١١٧)

وقد أثار ذلك السلطان بيبرس، وزاد من حنقه على هذه الفرقة، لذا فكر بطريقة يضعف بها جانب الفداوية في المنطقة لئلا يدخل معهم بمواجهة مباشرة، لأنه يدرك أن الوقت لم يحن للدخول معهم بصراع مباشر لانشغاله بالمواجهات المستمرة مع الصليبيين، فبدأ بعزل زعيمهم نجم الدين الشعرائي عن مشيخة الفداوية في بلاد الشام، وقتل مكانه صارم الدين مبارك بن الرضي صاحب قلعة القليعة الذي قدم له فروض الولاء والطاعة مما جعل السلطان يقلده مشيخة جميع قلاع الفداوية وهي: الكهف والخواصي، والمنيفة، العليقة، والقدموس، والرصافة مقابل أن تكون مصياف إقطاعاً للسلطان، وصدر لهم مرسوماً بذلك.^(١١٨) ومعنى ذلك أن نجم الدين الشعرائي أصبح معزولاً من الناحية النظرية عن رئاسة الفداوية في بلاد الشام، إلا أن الأمور في بلاد الشام سارت في غير صالح الفداوية، إذ تنكر صارم الدين لموقف السلطان فاستولى على مصياف بالقوة، وأخل باتفاقه، لذا قبض عليه بيبرس وأرسله سجيناً إلى القاهرة، حيث مات في سجنه.^(١١٩)

وقد استغل نجم الدين الشعرائي هذه الظروف وقدم إلى السلطان بيبرس لإصلاح ماشاب علاقاتهما من توتر، وكان عمر نجم الدين حينئذٍ تسعين عاماً، فرحمه السلطان لكبر سنه، وسامحه عن سابق أخطائه، وعينه على مصياف عوضاً عن صارم الدين، وفرض عليه جزية تقدر بحوالي عشرين ألف درهم يدفعها للسلطان، وبذلك أصبح الفداوية يؤيدون الجزية لحكام المسلمين، بعد أن كانت تدفع

(١١٦) المصدر نفسه، ١/٥٩٩.

(١١٧) نفسه، ١/٥٨٦.

(١١٨) المقريزي، السلوك، ١/٥٨٧.

(١١٩) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ٣٦٥-٣٦٦.

لهم اتقاء لشهرهم،^(١٢٠) وهذا يدل على مدى الضعف الذي وصل إليه الفدائية في تلك المرحلة. وقد نجح بيبرس في الاستفادة من فدائيتهم في تنفيذ بعض عملياته ضد الصليبيين، فقد استعملهم في محاولة اغتيال الأمير إيوارد ولي عهد إنجلترا الذي قدم إلى المنطقة لاستعادة أنطاكية، ورغم عدم تمكن الفدائية من اغتياله، فقد أصابوه بجراح خطيرة، بانو السلطان بإخراج نفسه منها بأن بعث إلى الأمير رسالة يهنئه فيها على نجاحه، وكان قد عقد معه هدنة.^(١٢١)

وقد تبين لبيبرس بعد ذلك ضرورة تصفية هؤلاء وإبعادهم عن المنطقة خاصة وأنه أخذ يتفرغ في تلك الأثناء لتصفية الوجود الصليبي من المنطقة، فأخذت معاقل الفدائية تتساقط شيئاً فشيئاً في أيدي قوات السلطان، حيث سقطت العليقة في شوال سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٢م)، بينما استولى نوابه على الرصافة في الشهر نفسه.^(١٢٢)

وقد استمرت معاقل الصليبيين بالتساقط تباعاً، وذلك بعد أن حاول سكان حصن الكهف والقلموس والمينقة تصيب مقدم عليهم بالقلاع.^(١٢٣)

ففي سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م) تسلم نواب الملك الظاهر ماتاخر منها، وبيتهج المقريني بسقوطها في أيدي المسلمين بقوله: «وأقيمت هناك الجمعة وتُرُضِي عن الصحابة بها، وعُقيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره».^(١٢٤)

وقد بقي شيخ الفدائية نجم الدين الشعرائي في مصر إلى أن توفي سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٤م)، وبذلك ضعف دور هذه الفرقة الذين كان لهم أثر سلبي واضح في الجبهة الإسلامية، وتهاوت أستارهم على يد السلطان الظاهر بيبرس الذي نجح في تخليص العالم من عدوكاد أن يمزق العالم الإسلامي إرباً وهم المغول، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل على يديه أيضاً تخليص العالم الإسلامي من خطر

(١٢٠) المقريني، السلوك ١/٥٨٧.

(١٢١) ابن عبد الظاهر، الروض ص ٢٨٥.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٤-٢٩٠.

(١٢٣) اليريني، نيل مرآة الزمان، ٢/٤٧٣.

(١٢٤) السلوك ١/٦٠٨.

داخلي كان منسباً في جسم الأمة الإسلامية، ألا وهم الغداوية. (١٣١)

إلا أنه يشار هنا إلى أنه على الرغم من الجهود التي قام بها السلطان الظاهر بيبرس في سبيل القضاء على هذه الفرقة، وتوجه المصادر التاريخية إلى ضعف نشاطهم أو انعدامه في أواخر حكم بيبرس إلا أن قلائدهم في المنطقة لا تزال تتميز بمظاهر القوة والمنعة مما هدد سلطان الماليك بعد بيبرس، وبشكل خطراً ماثلاً على نفوذهم في بلاد الشام. (١٣٢)

لذلك تعين على السلطان المنصور قلاوون الذي تولى السلطنة سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) أن يضع في اعتباره أن تكون هذه القلاع في حوزته، وتحت هيمنته، وذلك في اتفاقه مع الصليبيين في الهدنة التي عقدها مع كل من الاسبتارية وإمارة طرابلس في المحرم من سنة ٦٨٠هـ (أبريل ١٢٨١م) فحرص السلطان على أن تكون مصياف وبلادها وقلاع الدعوة في المنطقة ضمن ما يخضع للسلطان دون منازع. (١٣٣)

وفي مررد الرحالة ابن بطوطة على حصون هذه الفرقة تحدث عنها بقوله: « وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الغداوية. » (١٣٤)

ويشير ابن بطوطة إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد استعان بهذه الفرقة في الانتقام من أعدائه كما أنه خصص لهم مرتبات مغرية نظير ذلك، ويضيف أن السلطان إذا أراد أن يبعث أهدأ منهم لقرض اغتيال عدو له أعطاه دينه، فإن سلم بعد تنفيذ ما طلب منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده؛ ثم يقول ابن بطوطة: « ولهم مساكن مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتلهم » (١٣٥)

ويمكن أن يشار هنا إلى أن أصحاب هذه الفرقة - وبهذه الصفة - قد استعانوا شيئاً من نفوذهم بعد أن اضمحل في عهد بيبرس وكاد أن ينتهي.

(١٢٥) عفاف صبره، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦٠-٢٦١.

(١٢٦) عثمان عبيد الحميد عدوي، الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية

{ ٤٩١-٦٩١هـ / ١٠٩٧-١٢٩٠م } ص ٢١٢.

(١٢٧) ورد نص شروط هذه الهدنة في المقرئ، السلوك، ج ١/٣، ص ٩٧٤-٩٧٧.

(١٢٨) ابن بطوطة، الرحلة، ٩٢/١.

(١٢٩) الرحلة، ٩٢/١.

الخاتمة:

من خلال هذا البحث تبين لنا أثر الفداوية السياسي في الجبهة الإسلامية خلال الحروب الصليبية، ذلك الأثر الذي جعل تاريخ هذه الفرقة يمتزج بتاريخ الفريقين المتنازعين في المنطقة، بل إنهم أصبحوا قوة يحسب كل فريق لها حساباً خاصاً، بسبب سياستهم التي تقوم على الفتك بمن يخالفهم، فقد ذهب ضحيتهم جمع من زعماء الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في المنطقة، وعددٌ أيضاً من زعماء الصليبيين الذين حاولوا الوقوف في طريقهم، أو تعارضت مصالحهم معهم.

كما أوضحت لنا هذه الدراسة كيف أن هذه الفرقة أصبحت عاملاً من عوامل الفرقة والضعف الذي أصاب العالم الإسلامي آنذاك بمواجهاتها المستمرة مع زعماء المسلمين، وتوجيه الطعنات العامة إليهم من الخلف وفي تحالفاتهم المستمرة مع قادة الصليبيين، مما شكّل خطراً حقيقياً على الجبهة الإسلامية.

وقد أحسن الصليبيون استغلال وجود هذه الفرقة والخلاف الدائر بينها وبين المسلمين السنة، لتحقيق مكاسب لهم على حساب الفريقين، وهذا ما أدى إلى تداخل الأطراف الثلاثة فيما بينها، وكل طرف من هذه الأطراف أخذ يتصرف وفقاً لما تملّيه عليه مصالحه الخاصة حتى ولو تقلّب في ولائه بين طرفين.

وبما تقتضيه الأمانة التاريخية القول بأن العلاقة بين هذه الفرقة وبين الفريقين المتحاربين في المنطقة (المسلمين والصليبيين) لم تكن على وتيرة واحدة، ولم تكن موجهة مع فريق ضد الآخر على طول الخط، فقد كانت تتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين تارة لتحقيق مصلحة معينة، وينعكس الوضع أحياناً، فيتم تحالف هذه الفرقة مع المسلمين ضد الصليبيين تارة أخرى، وقد مرّ بنا نشاط الفداوية في اغتيال عددٍ من قادة الصليبيين في المنطقة، وهذا يعني أن مصالحهم الشخصية هي التي تملّى عليهم مثل هذه المواقف.

فلم ينتج عن علاقات الفداوية بالصليبيين في المنطقة روابط قوية بين الطرفين، ولم تسفر تلك العلاقات عن نتائج حاسمة. وكل ما هناك وفادات من الرسل والسفارات وتبادل المراسلات في بعض الأحيان، وفي المقابل تهديد من قبل الفداوية وتلويح باستخدام الخناجر المسمومة أحياناً أخرى، وقد سجّل للباطنية أنهم قاموا بعدد من الاغتيالات لعددٍ من زعماء الصليبيين حينما اقتضى الأمر ذلك.

وهذا يعني أن تلك العلاقات كانت تملئها المصالح الخاصة لكل طرف.
ومما يشار إليه هنا أن هؤلاء الفداوية لم يتمكنوا من السيطرة على أي من الحكومات الإسلامية،
ولم يؤسسوا لهم في المنطقة دولة ذات نظام مستقر، وحتى قلاعهم إن وجدت، فإنها مجرد مقاطعات
صغيرة ذات دور محدود، ومآلها في نهاية الأمر إلى السقوط في أيدي زعماء المسلمين كما حدث
فعلًا. وهذا أثر بدوره على عدم استقرار هذه الطائفة في المنطقة.

المصادر والمراجع:

أولاً المصادر:

- ابن الأثير : عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).
- ١- الكامل في التاريخ، ط٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- ٢- التاريخ الباهر في النولة الاتاكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليعات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٢٨٢هـ (١٩٦٢م).
- ابن بطوطة: أبو عبدالله، محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م).
- رحلته، المسعاة تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تحقيق وتقويم، على المتصر الكتاني، ط٤ بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- البنديري: قوام الدين الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (ت: ٦٤٣هـ/١٢٤٥م).
- تاريخ نولة آل سلقوق، ط٢، بيروت ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
- ابن تقي يردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر (د.ت).
- ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (١٩٧٢م).
- ابن أبي التيم القاسمي: القاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله (ت: ٦٤٢هـ/١٢٤٤م).
- التاريخ المظفر، ميكروفيلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة برقم (٦٠٤).
- سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المقطر يوسف بن قزاوغلي (ت: ٦٥٤هـ/١٢٥٦م).
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، الهند، حيدر آباد اللكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).
- السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر محمد (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م).
- تاريخ الخلفاء تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، دار التراث، ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

أبو شامة: شهاب الدين، أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت: ٤٦٥هـ/١٢٦٦م).
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج: تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، ق١ نشر مطبعة
لجنة التأليف والترجمة، القاهرة (١٩٥٦م)، ق٢ نشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر، القاهرة (١٩٦٢م)، ج٢، مطبعة وادي النيل، القاهرة (١٢٨٨هـ).

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت: ٤٤٨هـ/١١٥٢م)
الملل والنحل، تحقيق: عبدالعزيز محمد الوكيل، بيروت دار الفكر، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).
ابن عبد الظاهر: محيي الدين أبو الفضل عبدالله بن عبد الظاهر (ت: ٦٩٢هـ/١٢٩٢م).
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر: عبدالعزيز الخويطر، ط١، الرياض،
١٢٩٦هـ (١٩٧٦م).

ابن العديم: كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ/١٢٦١م).
زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات
العربية، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٥٤م).

العظيمي: محمد بن علي العظيمي الحلبي (ت: ٥٥٦هـ/١١٦١م علي الأرجح):
تاريخ حلب، تحقيق: إبراهيم زعرور دمشق، ١٢٨٤هـ (١٩٨٤م).
العيني: يبرالدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (٨٥٥هـ (١٤٥١م)
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان
الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت: ٥٠٥هـ/١١١٢م)
فضائح الباطنية، تحقيق عبدالرحمن بديوي، القاهرة، دار القومية للطباعة والنشر، ١٢٨٣هـ
(١٩٦٤م).

أبو اللداء: عماد الدين إسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م).
المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم الحنفي المصري (ت: ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)
تاريخ الدول والملوك المعروف بـ «تاريخ ابن الفرات» ١٨ مجلد مصور في دار الكتب المصرية
بالقاهرة برقم ٢١٩٧.

- ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي التميمي النمشقي (ت: ٥٥٥هـ/١١٦٠م).
 تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار إحسان، ١٤٠٢هـ (١٩٨٣م).
 ابن كثير: أبو الغداء اسماعيل بن عمر القرشي النمشقي (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
 البداية والنهاية، ط٢، بيروت، مكتبة المعارف (١٩٧٧م).
 المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م).
 كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ط٢ نشر محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف
 والترجمة والنشر (١٩٧٠م).
 ابن منقذ: أبو المظفر مؤيد النولة أسامة بن مرشد بن علي (ت: ٥٨٤هـ/١١٨٨م) الاعتبار
 ابن ميسرة: محمد بن علي بن يوسف بن جلب (ت: ٦٦٧هـ/١٢٧٨م)
 أخبار مصر، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي بمصر (١٩١٩م).
 النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٢م).
 نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٧، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة
 للكتاب، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
 ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٧م).
 مطرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيبان، القاهرة (١٩٥٣م).
 ابن الوردي: زين الدين عمر (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).
 تنمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البناوي، بيروت، دار المعرفة، ١٣٨٩هـ
 (١٩٧٠م).
 ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م).
 معجم البلدان ط٢ بيروت: دار صادر، ٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
 اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٥م).
 دليل مرآة الزمان، حيدرآباد الدكن، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م).

ثانياً : المراجع:

- أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، الكويت، ١٩٧٥م.
- أسامة زكي زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية (القرن الثاني الميلادي/السادس الهجري) الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٨٠م).
- جوزيف نعيم يوسف: العنوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، مكتبة الحروب الصليبية، ٢، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨١م).
- حامد قنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، القاهرة (١٩٧١م).
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والنيابي والثقافي والاجتماعي . القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، (١٩٦٧م).
- رنسيمان «ستيلن»: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريضي، بيروت، دار الثقافة (١٩٦٧-١٩٦٨م).
- سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط٢، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٧٨م).
- سهيل زكازن: الحروب الصليبية، دمشق، دار حسان، ١٤٠٤هـ- (١٩٨٤م).
- طه أحمد شرف الدين: الدولة النزارية، القاهرة، ١٩٥٠م.
- عثمان عبدالحميد عشوي، الإسماعيليون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (٤٩١-٦٩١هـ/١٠٩٧-١٢٩٠م)، القاهرة، المكتبة التاريخية، ١٩٨٢-١٩٨٣م.
- عفاف سيّد صبيرة: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٦هـ- (١٩٨٥م).
- عماد الدين خليل: المقاومة الإسلامية للفزق الصليبي، عصر ولاية السلاجقة في الموصل (٤٨٩- ٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧) الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ- (١٩٨١م).
- ماركو بولو: الرحالة البندقي (٦٥٢-٧٢٥هـ/١٢٥٤-١٣٢٤م) رحلات ماركو بولو، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٧٧م).
- B. Lewis. The Assassins. A radical Sect. in Islam. (Oxford :1967).